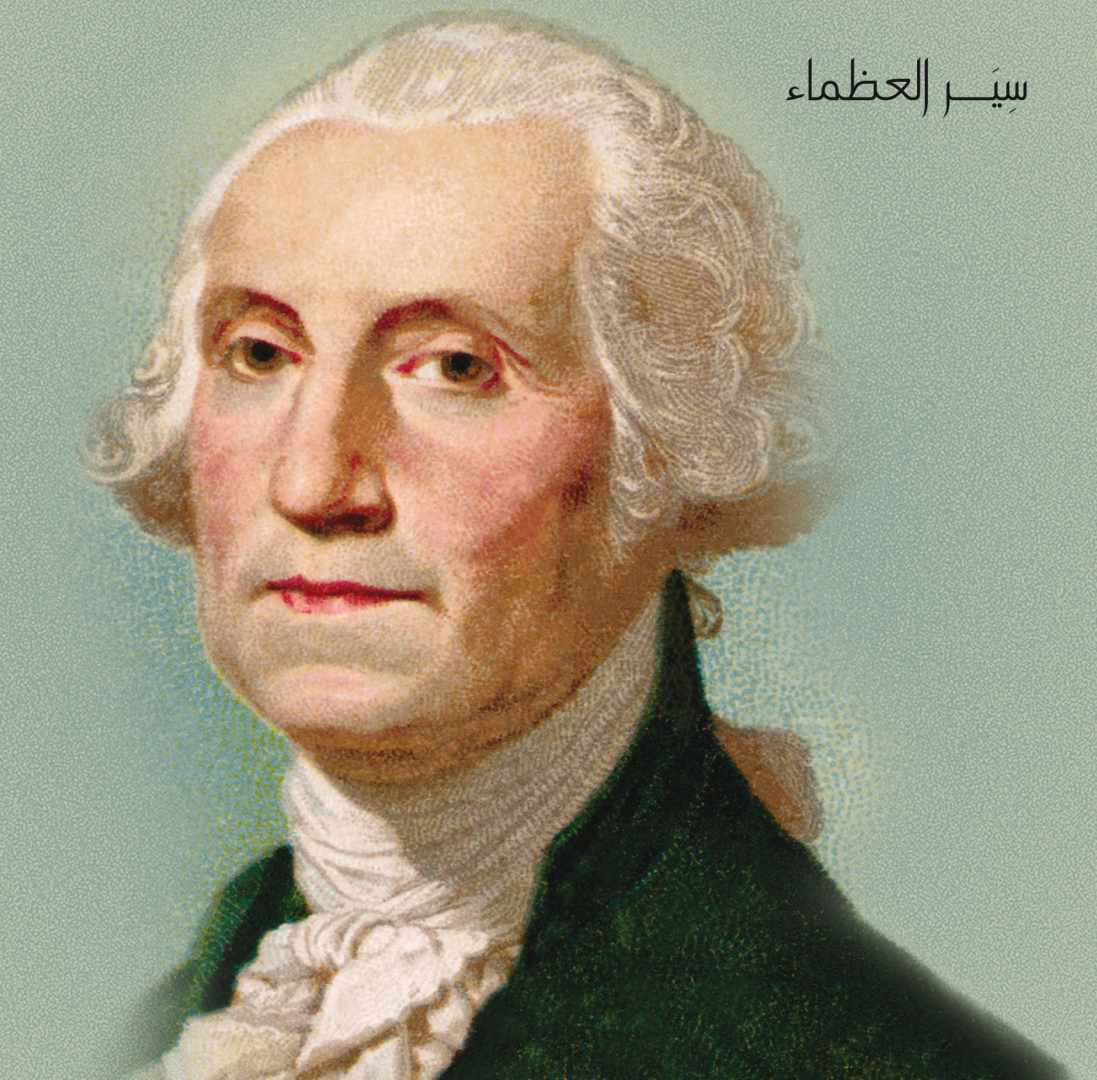


سِيرَ الْعِظَمَاءِ



جورج واشنطن

الآبِ اِمُوْسَس

بول جونسون

جورج واشنطن

جورج واشنطن

الأب المؤسس

تأليف

بول جونسون

ترجمة

محمد إبراهيم السيد

مراجعة

هبة نجيب السيد مغربي



George Washington
The Founding Father

Paul Johnson

جورج واشنطن
الأب المؤسس

بول جونسون

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ISBN 978 977 6263 33 8

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +

البريد الإلكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com

الموقع الإلكتروني: http://www.kalimatarabia.com

جونسون، بول

جورج واشنطن: الأب المؤسس / بول جونسون . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٩

١٢٨ ص، ١٤,٥ × ٢١,٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٣٣ ٨

١- الولايات المتحدة الأمريكية - تاريخ - العصر الحديث - جورج واشنطن (١٧٨٩-١٧٩٧م)

٢- الولايات المتحدة الأمريكية - رؤساء الجمهورية

٣- واشنطن، جورج، ١٧٩٩-١٧٣٢

أ- العنوان

٩٧٣,٤١

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية،
ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة
نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2009 Kalimat Arabia

George Washington

Copyright © 2005, Paul Johnson

All Rights Reserved.

إلى حفيدتي الأمريكية

المحتويات

٩	١- شاب نبيل في فيرجينيا
٢٩	٢- عقيد شاب شجاع وزوجة ثرية
٤٣	٣- مالك للعبيد ومزارع رائد وبناء
٥٥	٤- قائد عام للقوات وجنرال منتصر
٨١	٥- تأسيس أمة: النظرية
٩٣	٦- تأسيس أمة: التطبيق
١١٧	٧- السنوات الأخيرة
١٢٣	المراجع والمصادر

الفصل الأول

شاب نبيل في فيرجينيا

كان جورج واشنطن أحد أهم الشخصيات في تاريخ العالم؛ إذ إنه هو الذي اضطلع بالدور الرئيسي في الثورة الأمريكية. وقد حرر المستعمرات الثلاث عشرة من قبضة الحكم الاستعماري عندما كان القائد العام للقوات الأمريكية طوال الصراع الذي استمر ثمانية أعوام. وقاد بعد ذلك العملية التي اعتمدت عليها الأمة الجديدة في صياغة دستورها الفيدرالي وإقراره وتشريعه. وأخيراً، وعلى مدار ثمانية أعوام تولى جورج واشنطن إدارة الحكومة التي اضطلعت بتطبيق الدستور بنجاح، حتى إنه بعد تحديثه وإجراء التعديلات المناسبة عليه؛ استمر ما يقرب من مائتي وخمسين عاماً.

وبهذا كانت الثورة التي قادها نحو النجاح هي الأولى في سلسلة من الثورات التي أدت إلى نشأة العالم الحديث الذي نحيا فيه. وقد كانت روح الثورة مدفوعة بالرغبة نفسها في حكومة نيابية، والاحترام نفسه لسيادة القانون، اللذين تمخضا عن الدستور الإنجليزي غير المكتوب على مدار قرون عدة. ويرجع الفضل في بث تلك الروح بنجاح في الأمة الأمريكية الجديدة إلى عبقرية جورج واشنطن. وقد أفسد الثورات اللاحقة — في فرنسا في تسعينيات القرن الثامن عشر وفي أمريكا اللاتينية على مدار ربع القرن التالي — وقوع أحداث مأساوية نتيجة للعنف والطموح، أدت إلى اضطرابات دائمة لم تتمكن سيادة القانون في ظلها من أن تترسخ. وكثيراً ما تكرر ذلك النموذج في الثورات التي اندلعت في القرن العشرين، والتي حصلت بها شعوب آسيا وأفريقيا على استقلالها. ومع ذلك، تشبثت الولايات المتحدة

طوال تلك الفترة بالمبادئ التي حارب من أجلها جورج واشنطن والتزم بها في أثناء فترتي رئاسته. وقد مكنت تلك المبادئ الولايات المتحدة من النجاة من حرب أهلية شبه مهلكة، وجعلتها أكبر قوة اقتصادية في العالم، تستقبل الفقراء من جميع أنحاء العالم وتحولهم إلى أغنى الأغنياء في التاريخ، وأخيرًا جعلتها تصبح القوة العظمى الوحيدة في العالم بنهاية القرن العشرين. وفي بداية القرن الحادي والعشرين، تبدو الولايات المتحدة مستعدة للاضطلاع بالدور الرئيسي في نشر الأمن والديمقراطية في جميع أنحاء العالم. وقد اضطلع جورج واشنطن، ولا يزال، بدور فريد في هذه العملية الهائلة باعتباره الأب المؤسس، ونموذجًا يحتذى به في الاعتدال والحكمة.

أي نوع من الرجال كان جورج واشنطن؟ وكيف تأتي له تحقيق كل تلك الإنجازات؟ يسهل الرد على هذا السؤال لو أن الوثائق وحدها تستطيع تقديم إجابة له. فقد عمل لما يزيد عن ثلث عمره في خدمه بلاده، ونجد أن جميع إنجازاته التي حققها على المستوى الرسمي مُسجلة ومحفوظة في إدارة المحفوظات القومية على نطاق لم يتسن لأية دولة أوروبية حينها أن تضاهيه. وولدت الدولة القومية الأمريكية على رءوس الأشهاد، وتم تسجيل ميلادها بدقة متناهية، علاوة على ذلك، أخذ جورج واشنطن منذ أن كان عمره قرابة أربعة عشر عامًا يحتفظ بكل قصاصة ورق تخصه، بما في ذلك دفاتر اليوميات والخطابات المرسلة والمتسلمة، والسجلات وغيرها من المعاملات اليومية. وعندما بدأ يتقدم في العمر، بدأ ينظم تلك الأوراق وفقًا لتسلسلها الزمني، وصنفها وفقًا للاسم والموضوع؛ فيبدو أنه أدرك منذ مرحلة مبكرة من حياته المهنية أنه سيصبح شخصية تاريخية مهمة، ولذلك أراد تسجيل الأحداث بدقة بهدف إثبات أنه تولى المناصب التي شغلها بدافع الواجب وليس التباهي. وكان طموحه الجامح هو أن يُرى على أنه غير طموح، ومن ثم كان اهتمامه بأوراقه مزيغًا غريبًا من التواضع والوعي بالذات. وقد أخذ سجلاته معه عندما ذهب إلى الحرب، وأصدر تعليمات مشددة لحرسه الخاص بحمايتها بأرواحهم والإسراع بنقلها إلى مكان سري آمن في حالة تعرض مركز القيادة للخطر. وبعد الحرب انتقلت

السجلات إلى منزله (ماونت فيرنون)، وفي وقت لاحق تزايدت بصورة ضخمة أوراقه وهو يشغل منصب الرئيس، وتولى حفظها وتصنيفها سكرتير وأمين سجلات خاص. وعندما وافت المنية جورج واشنطن، حمل مساعده جارد سباركس Jared Sparks جميع السجلات إلى بوسطن، حيث انتقلت منها في عام ١٨٣٢م إلى مكتبة الكونجرس التي اشترتها من الورثة. تشغل تلك السجلات مساحة ١٦٣ قدم من الأرفف — بواقع وثيقة واحدة بكل صفحة مثبتة من الجانب الأيسر ومجلدة؛ وتباع في ١٢٤ بكرة ميكروفيلم، وهي متوفرة الآن على أقراص. وتمثل تلك السجلات مجمعة أكمل السير الذاتية في القرن الثامن عشر بأسره، وتفوق بذلك بكثير الكميات الهائلة من الآثار التي تركها — على سبيل المثال — جيمس بوزويل James Boswell، أو هوراس والبول Horace Walpole.

ومع ذلك، ورغم كتابات معاصريه عنه التي لا حصر لها والكمية الهائلة من المراجع التي جمعها المؤرخون، والتي هي من الضخامة بمكان بحيث يتعذر على أي شخص قراءتها واستيعابها؛ يظل جورج واشنطن شخصية مجهولة وغامضة. فقد كان شخصية حيرت من عرفوه وعملوا معه، من الذين كثيراً ما اختلفوا بشدة حول سماته وقدراته. إنه حقاً شخصية محيرة، فلا يوجد عقل يصعب ولوجه وسبر غوره مثل عقل جورج واشنطن. لقد اتفق الجميع، ولا يزالون، على أنه كان نموذجاً يحتذى به، لكن أكان نموذجاً ثرياً أم خاوياً؟ أكان أسطورة من لحم ودم، أم آلة مُبرمجة على التصرف بحكمة؟ دعونا نستكشف الأمر.

نجد أن أول حقيقة ذات أهمية هي أن جورج واشنطن ينحدر من أصول إنجليزية نبيلة، وينتمي إلى الطبقة التي بجلها أشد ما يكون، ألا وهي الطبقة الأرستقراطية المستقلة التي تملك الأراضي. لقد كان يطمح طوال حياته إلى أن يكون سلوكه سيد نبيل، وأن يمتلك من الأرض أكبر مساحة يقدر على زراعتها. كان أولئك المزارعون النبلاء ينتمون إلى مدينة نورث هامبتون التي تقع في قلب إنجلترا، وكانوا شديدي الولاء للملكية، مع أن مدينة نورث هامبتون، التي كانت مركزاً لتجمع صانعي الأحذية؛ اشتهرت

بأنها مهد للثوار. وفي عام ١٦٥٧م، تحطمت سفينة مساعد القبطان جون واشنطن John Washington، التي كانت تحمل اسم «سي هورس أوف لندن» Sea Horse of London نتيجة اصطدامها بمنطقة مياه ضحلة بنهر بوتوماك، بالقرب من موقع مدينة واشنطن الحالي، عندما كان متوجهاً إلى فيرجينيا لتحميل شحنة من التبغ. فقرر الاستقرار في مقاطعة ويستمورلاند، وتزوج آن بوب Anne Pope وهي ابنة رجل ذي شأن كبير وأحد أعضاء مجلس النواب بفيرجينيا، وهكذا حصل على سبعمئة أكر تطل على نهر بريدجز كريك، بالإضافة إلى رأس المال اللازم للبدء في زراعة تلك الأرض، ثم أصبح عضواً في مجلس الكنيسة وفي مجلس النواب، وقاضياً وعقيداً بقوات الميليشيا، وساعد في إخماد ثورة بيكون في عام ١٦٧٦م. وعندما وافته المنية، كان يملك ما يزيد عن ثمانية آلاف أكر، تشمل ضيعة على نهر هانتينج كريك أعلى نهر بوتوماك، قيل إن مساحتها تصل إلى ألفين وخمسمئة أكر. وقد أصبح ذلك المكان موقع منزل جورج واشنطن (ماونت فيرنون)، الذي أصبح المحور الذي دارت حوله حياته، وقد قام هو نفسه بمسحه بدقة ووجد أن مساحته تصل إلى ٢١٢٦ أكرًا.

كانت عائلة جورج واشنطن عند ميلاده في ٢٢ فبراير/شباط من عام ١٧٣٢م عائلة ذات شأن تحظى باحترام شديد على مدار ما يزيد على ثلاثة أجيال، وما يقرب من قرن كجزء من طبقة الصفوة في فيرجينيا التي تتمتع بالاستقلال وتمارس حكمًا نيابيًا (وإن كان غير ديمقراطي) في ظل النظام البرلماني الإنجليزي. ومن المهم إدراك أن جورج واشنطن كان ينظر إلى نفسه، منذ الصبا، كأحد أفراد طبقة حاكمة تدير شئونها بنفسها منذ أمد بعيد، أو كما يقول الإنجليز دائمًا: «منذ قديم الأزل». وهكذا كان أي تغيير من الخارج يُعد اعتداءً، ومقاومته واجبًا أخلاقيًا وكذلك مصلحة شخصية. رُزق والد جورج واشنطن، أوجستس Augustus أو جس Gus واشنطن، بعشرة أطفال من زوجتين، وهذا ليس بالأمر الغريب في القرن الثامن عشر في فيرجينيا التي كانت حينها مستعمرة ولود وملتزمة بالحماس، فزاد تعدادها السكاني من ١٢٥ ألف نسمة في ١٧٣٢م — العام الذي وُلد فيه

جورج واشنطن — إلى ما يقرب من نصف مليون نسمة في ١٧٧٥ م — العام الذي أصبح فيه القائد العام للقوات. كان أوجستس، الذي تُوفي عندما كان جورج في الحادية عشرة من عمره؛ متوسط الحال رغم أنه كان يمتلك عشرة آلاف أكر وتسعة وأربعين عبداً ويدير ست ورش للحداة؛ كانت مقتنياته في منزله متواضعة؛ فكانت قيمة الفضيّات التي يملكها تبلغ ١٠,١٢٥ جنيهًا استرلينيًا (حيث كان الجنيه الاسترليني سائدًا في المستعمرات حتى نهاية سبعينيات القرن الثامن عشر)، وكانت تتكون من: ثمان عشرة ملعقة «صغيرة»، وسبع ملاعق شاي، وملعقة حساء، وساعة يد، وسيف ذي مقبض فضي. كما كان يمتلك مجموعتين من أطقم الشاي الصينية التي بلغت قيمتها ٣,٦ جنيهات استرلينية، ومراة رائعة للردهة، ومكتبًا أو «مكتبًا صغيرًا للكتابة» ومقعدًا بذراعين، وأحد عشر مقعدًا بقاعدة من الجلد، وثلاثة «مقاعد قديمة»، و«مكتبًا قديمًا وطاولة قديمة»، وثلاثة عشر سريرًا موزعة في المنزل، وستائر للنوافذ، وستة أزواج من الملابس «الجيدة»، وعشر ملابس أقل جودة، وسبعة عشر غطاء وسادة، وثلاثة عشر غطاء للمائدة، وواحدًا وثلاثين منديلًا للمائدة. وكان هناك من العبيد ثلاثة عشر يعملون داخل المنزل وخارجه، سبعة منهم قويو البنية (بالغين ويتمتعون بقوة بدنية). إلا أن أوجستس كان غنيًا بما يكفي لإرسال ولديه أوجستس ولورانس إلى مدرسته القديمة «أبل باي» في شمال إنجلترا، التي كانت أفضل مدرسة في البلاد تحت إدارة ريتشارد ييتس Richard Yates الشهير. كما كان يطلب تفصيل ملابسه في إنجلترا، العادة التي اتبعتها جورج حتى اندلاع الثورة. وقد كانت الحياة بين الطبقة الأرستقراطية في فيرجينيا بسيطة آنذاك؛ فذكرت مارثا Martha، زوجة جورج، وهي تستغرق في الذكريات في ١٧٩٨ م، أنه لم يكن هناك إلا عائلة واحدة تمتلك عربة، وكانت السيدات يسافرن على ظهور الخيل، وكان تقديم ربع رطل من الشاي يُعد «هدية ضخمة». وكان أوجستس رجلًا أشقر ضخم البنية، وقد ورث عنه جورج هيئته، أما خلاف ذلك فلم يترك أوجستس إلا تأثيرًا ظاهريًا طفيفًا على ابنه الشهير. وما قصة الفأس وشجرة الكريز إلا محض اختلاق (١٨٠٠ م) وليد مخيلة أول

كاتب لسيرته، القس ويمز Parson Weems، الذي كان يعمل ببيع الكتاب المقدس. ولم يأت جورج واشنطن على ذكر والده في مراسلاته الخاصة التي تقع في آلاف الصفحات إلا مرتين فقط، لكن من ناحية أخرى، نجد أن والدته ماري بول Mary Ball — زوجة أوجستس الثانية التي كانت تمتلك ثروة اكتسبتها بنفسها — كانت شخصية مهيبة؛ وكان جورج يعاملها بكل احترام ممكن و«تحفظ». وقد أشار إليها على رءوس الأشهاد قائلاً: «أمي المبجلة، صاحبة اليد الحنون (بعد الحرمان المبكر من الأب) التي أخذت بيدي منذ الطفولة.» كما كتب أحد أبناء عمومته ورفيقه في المدرسة يقول: «كنت أخاف والدة جورج أكثر بكثير مما أخاف والداي ... وكنت كثيرًا ما أتواجد مع أبنائها، الذين كانوا طوال القامة أيضًا، لكننا كنا نجلس صامتين كالفران.» لقد كانت شخصية «مسيطرة» اعتادت أن تأمر فقطاع.

كانت والدة جورج معمرة، فقد ظلت أرملة ستة وأربعين عامًا، وكانت شديدة التحمل ومغامرة، ولا تكل ولا تمل من أعمال عائلة ضخمة العدد. وقد ورث جورج عنها صحتها الجيدة وقدرتها على تحمل الشدائد العظيمة، في حين ورث عن أبيه مظهره الخارجي. ويتضح من المقاسات التي كانت تُرسل إلى الحائك الخاص به في لندن، والتي أُخذت من أجل صنع التابوت بعد وفاته، أن طوله كان يبلغ ستة أقدام وثلاث بوصات، وهو ضخم بالنسبة لمتوسط الأطوال في القرن الثامن عشر. لكنه لم يكن بدينًا على الإطلاق؛ فقد كان رشيق القوام مستقيم المنكبين وعريض الفخذين، ويزن ما يقرب من ٢٢٠ رطلاً، كما تعلم أن يكون راقصًا رشيقًا ومتحمسًا. وقد كان قوامه، بطريقة ما، هو مفتاح نجاحه في قيادة الرجال، فلم يكن يحتاج إلى الصياح كي ينصاع الآخرون لأوامره، إلا في وجود جلبة أو في معمرة المعركة، حيث يذكر شهود عيان أنه لم يكن يصيح فقط، بل كان يلهب أظهر الجبناء من الضباط الذين كانوا يهرعون إلى مكان آمن مستخدمًا عصاه أو حتى السوط (وقد كان أوليفر كرومويل Oliver Cromwell يفعل مثل ذلك). لكن بصورة عامة كان صوته الهادئ والمتأنى والمنظم — واللين في بعض الأحيان — كافيًا. يقول بنيامين لاتروب

Benjamin Latrobe — ضابط معاون سابق ورسام قوي الملاحظة: «كانت مشية جورج واشنطن وسلوكه وبنيته وملامحه تتسم بشيء من المهابة والقوة الاستثنائيتين.» كما كتب عنه صديقه الفرنسي، ماركيز دي لافاييت Marquis de la Fayette: «لقد كان له أضخم يدين رأيتهما على الإطلاق.» وكان يمكنه «أن يقذف بقطعة من الحجارة لمسافة هائلة.» كما كان يحب أن يلعب البيسبول، ومن الغريب أنه اشترك في شغفه باللعبة مع عدوه اللدود جورج الثالث George III (الذي أطلق على اللعبة بشكلها الإنجليزي اسم «راوندرز»). وقد وصف ابن زوجته، جاكى كرتيز Jacky Curtis، بشرته بأنها «شقراء لكن متوردة للغاية»، وكان شعره أحمر أو ضارب إلى الحمرة إلى أن فقد لونه.

لا نعرف تحديداً أين ولد، وقد زعمت الحكومة الأمريكية في الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية في عام ١٩٣٢م، أنها تمكنت من تحديد مسقط رأسه والمنازل التي عاش بها قبل أن يستقر في مزرعة ماونت فيرنون حيث قضى بقية عمره، إلا أنه لا يوجد أي دليل على مثل ذلك الادعاء، وقد يكون خاطئاً. لكن من المؤكد أنه وُلد بالقرب من نهير بوبس كريك في منطقة واشنطن بمقاطعة ويستمورلاند. وقد سُمي جورج تيمناً باسم الوصي على أمه أو اسم جورج الثاني (وهو الرأي الأرجح عندي). ولا نعرف أي شيء تقريباً عن حياة جورج واشنطن حتى بلوغه سن الحادية عشرة حين توفي والده، الذي اختار ألا يرسله إلى مدرسته القديمة في إنجلترا — على الأرجح لعدم قدرته على تحمل نفقاته، واتضح أن جورج واشنطن لم يرحل عن وطنه أمريكا إلا مرة واحدة، الأمر الذي جعله يشعر بأسى شديد. فقد كتب فيما بعد عن «الرغبة الشديدة، التي غمرتني طوال سنوات عدة لأن أزور العاصمة العظيمة لتلك المملكة ... لكنني الآن مقيد القدمين ويجب أن أنحي تلك الرغبة جانباً.» وفي هذا الشأن، أي السفر، كان جورج واشنطن ضيق الأفق، لكن ليس بالقدر نفسه الذي كان عليه عدوه جورج الثالث، الذي لم يغادر إنجلترا قط — ولو إلى «هانوفر» التي كان ملكاً متوجاً عليها — والذي لم يرَ البحر حتى وصل إلى منتصف العمر.

وقد تلقى جورج تعليمه داخل الأسرة أو في الضيعة في إحدى مدارس هنري ويليامز. ويتضح من دفاتره وشهادة معلميه أنه تعلم إلى جانب قواعد اللغة الإنجليزية الحساب ومسك الدفاتر والجغرافيا والهندسة وحساب المثلثات ومسح الأراضي. وأصبح خطه في الكتابة واضحاً تماماً ومقروءاً — أكثر الخطوط وضوحاً بين الآباء المؤسسين — وظل كذلك. ولم يقدره توماس جيفرسون Thomas Jefferson وجون آدمز John Adams حق قدره لاعتقادهما بأنه ذو تعليم محدود للغاية، ذلك مع أنه كان يمتلك عند وفاته مكتبة تحتوي على ٧٣٤ كتاباً، اشتراها جميعاً بنفسه وقرأها أو اطلع عليها أو تصفح أجزاء منها. وقد كان تعليمه النظامي عملياً بقسوة، لكنه استوعبه جيداً. وعلى غرار معاصره الأصغر منه نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte، كان جورج متميزاً في الرياضيات ويتمتع بموهبة في التعامل مع اللوجستيات، وكانت سجلاته دائماً محل ثقة (على عكس سجلات توماس جيفرسون، التي كانت غالباً غير متسقة أو تبدو غير منطقية بالرغم من غزارتها). لقد ضل جون آدمز John Adams الجميع عندما سخر من جورج واشنطن قائلاً: «لا شك أن جورج واشنطن لم يكن عالماً، وكذلك مما لا خلاف عليه أنه لم يكن متعلماً أو مطلعاً أو مثقفاً بدرجة تتماشى ومنصبه.» فقد ثبت أن التعليم الذي تلقاه جورج واشنطن كان ملائماً جداً لكل من الحياة المدنية والعسكرية على حد سواء. فكان تعلمه لمسح الأراضي والجغرافيا يعني أنه أصبح خبيراً في قراءة الخرائط مثل بونابرت، وهو إنجاز لم يصل إليه إلا قليل من كبار الضباط في أية دولة، ومهاراته اللوجستية التي اكتسبها في شبابه تعني النجاح المستمر في إدارة المزارع المتباعدة — عندما كان هناك — وكذلك في إدارة جيشه غير المنظم، فأنزل بذلك الهزيمة بدولة كبرى في ميدان المعركة، وأصبح أحد أغنى اثني عشر مالك أرض في البلاد.

هناك الكثير من الشواهد على مدى جدية جورج في صباه وإصراره على النجاح، حتى إنه — بعد وفاة والده الذي كان معلمه المخلص الذي يرشده إلى الأخلاق النبيلة — حصل على كتيب يحتوي على ١١٠ قاعدة

سلوكية جمعه اليسوعيون — وهم المعلمون المجلولون للشباب — لكنه تشبع بالصبغة الإنجليزية ثم الأمريكية في ترجمات مختلفة، ونسخه. وقد كان من ضمن تلك القواعد: «لا تدندن لنفسك بضوضاء مزعجة، ولا تفرع بأصابعك أو بقدميك»، و«لا تقتل الحشرات، كالبراغيث والقمل والقراد وغيرها، أمام الآخرين»، و«عندما تكون بصحبة شخص ذي مكانة عظيمة، فلا تسرِّ بمحاذاته، بل تأخر عنه بعض الشيء لكن بمسافة تسمح له بالتحدث إليك بسهولة». وكانت عادة اختزال أخلاق النبلاء في مجموعة من القواعد من سمات القرن الثامن عشر، كما يوضح أدباء مثل توبياس سموليت Tobias Smollett، وبنيامين فرانكلين Benjamin Franklin، ودينيس ديدروت Denis Diderot. إن الحقيقة الرئيسية في شخصية جورج واشنطن هي كونه نموذجًا واضحًا لسمات رجل القرن الثامن عشر؛ فقد وُلد في العام نفسه الذي وُلد فيه اثنان من أعظم أنصار ثقافة القرن الثامن عشر، ألا وهما: فراجونار Fragonard، وهایدن Haydn. فكان قادرًا على التكيف مع أي ظروف ويستطيع العيش في جميع العصور، إلا أنه من المستحيل أن يكون قد توقع الحركة الرومانسية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر، ولم يقرأ كتابات روسو Rousseau أو أية كتابات أدبية بعد بوب Pope وأديسون Addison الذي كان مؤلف مسرحيته المفضلة Cato.

لكن جورج واشنطن لم ينظر أيضًا خلفه إلى القرن السابع عشر والحماسة الدينية التي سادت حينذاك. وقد أصبح عضوًا في مجلس الكنيسة عندما بلغ، حسبما يليق بمكانته لما يمتلكه من أراضٍ، لكن انضمامه لذلك المجلس كان لأسباب اجتماعية. ويعكس سجل حضوره في الكنيسة، الذي يظهر نسبة تصل إلى ٥٠٪ أو أقل، أنه كان يحضر بدافع اللياقة وليس الحماسة. وقد كتب إلى صديقه بورويل باسيت Burwell Bassett ذات مرة مازحًا: «سينشرح قلبك إذا ما رأيت الحماسة الدينية التي أهرع بها إلى الكنيسة كل يوم أحد». لكنه لم يكن يطبق المواعظ الطويلة، ولم يقرأ في حياته أية كتابات دينية، كما أنه لم يأتِ على ذكر «المسيح» في أي من مجلدات مراسلاته العشرين، ولم يظهر اسم «يسوع» في أي من الخطابات

المتبقية من فترة شبابه، ولم يرد سوى مرتين فقط في الخطابات التي تلت تلك المرحلة. كما أنه استخدم مصطلح «العناية الإلهية» أكثر من «الإله»، لكنه لم يكن غير مبال بالمسيحية قط — بل على النقيض كان يعتبرها عنصرًا أساسيًا من عناصر السيطرة الاجتماعية والحكومة الجيدة — لكن فكره وعواطفه جعلاه يميل أكثر إلى الماسونية، التي ظهرت بديلاً عن العقيدة الرسمية، والتي كان انتشارها بين الذكور من الأنجلوساكسونيين سمة من سمات القرن الثامن عشر. ولم تظهر الماسونية في المستعمرات إلا قبل ثلاث سنوات فقط من ميلاده. وتأسس أول محفل ماسوني حقيقي في أمريكا في عام ١٧٣٤م في فيلادلفيا، حيث تولى فرانكلين رئاسته. وقد أصبح جورج واشنطن على دراية بالسمات الظاهرة للماسونية وهو صبي، وقد نُصِبَ ماسونيًا مبتدئًا في محفل فريديريكسبرج في عام ١٧٥٢م عندما بلغ العشرين من عمره. وبعد ذلك لعبت الماسونية، مثلما فعلت مع العديد من الآباء المؤسسين؛ دورًا مهمًا — وإن كان غير ملحوظ — في حياته. وفي الحقيقة، تُعتبر الماسونية أحد أحجار الأساس الفكرية للثورة، وقد سمح جورج واشنطن للمحافل الماسونية بالازدهار في العديد من معسكراته في الحروب، فقد كانت حلقة الاتصال بالفكر المتقدم في فرنسا، وعندما زاره لافاييت Lafayette في عام ١٧٨٤م، أهداه مريلة ماسونية مصنوعة من قماش الساتان الأبيض التي طرزتها زوجة الماركيز بنفسها. وقد أقسم جورج واشنطن يمين توليه رئاسة الولايات المتحدة على الإنجيل الماسوني، كما استدعى محفلي ميريلاند وفيرجينيا عند وضع حجر الأساس لمبنى الكونجرس الأمريكي في عام ١٧٩٣م. وبالطبع كان الستة الذين حملوا التابوت في جنازته من الماسونيين، وأقيمت مراسم تأبينه وفقًا للطقوس الماسونية.

كما يعكس جورج واشنطن أعمق سمات القرن الثامن عشر في جانبيين آخرين من شخصيته، ألا وهما: إيمانه بأهمية قيمة الأرض، ومفهومه عن «المصلحة». لقد كان جنديًا وسياسيًا، لكنه كان في المقام الأول من النبلاء ملاك الأراضي، وهذا هو ما كان يصبو إليه، بل يمكن القول إن هذا هو

كل ما تمناه. وكان هناك قول سائد في عصره يقول: «قد يمنحك الملك لقب «نبل»، لكن الإله وحده (والأرض) يمكنهما أن يجعلاك منك رجلاً نبيلًا». ولم يكن جورج واشنطن يميل إلى المصافحة؛ إذ اعتبرها عادة فظة من عادات المدينة، وسلوك «شخص مواطن»، وهي كلمة تسلفت من باريس، فهو لم يعتبر نفسه مواطناً قط. وكان ينحني عند تحية أي شخص، وما أروعها انحناءة! إيماءة تدل على لباقة تنم عن تفكير عميق. ولم يترد شعراً مستعاراً قط، لأنه رأى أنه غير جذاب ومزعج، لكنه مع ذلك كان يتأنق في ارتداء الملابس كأحد ملاك الأراضي الإنجليزي الأثرياء، ويضع المسحوق على شعره بأناقة، ويربطه بشريط ناعم يُسمى سوليتير. ويُقال إنه كان «يعتني بأرضه»؛ إذ كان يعتبر الحقيقة الأساسية في الحياة الاقتصادية هي أن الأرض أكثر الممتلكات قيمة، فهي تجلب الاحترام وحتى النفوذ، بالإضافة إلى الراحة، كما أنها «السلعة التي غالباً ما تزداد قيمتها».

وكان مفهوم «المصلحة» وثيق الصلة بالممتلكات الفعلية، وكان مفهوماً آخر من مفاهيم القرن الثامن عشر التي كانت تسيطر على ذهنه. وكانت المصلحة هي الصلات — سواء من خلال الروابط الأسرية أو الصداقات أو العلاقات المحلية أو العشيرة — التي تجعل المرء متقدماً على منافسيه في الحصول على ما يرغب فيه، من مكان أو ترقية أو عقد أو خدمة. كما كانت هي مفتاح «النجاح» وتحقيق المكاسب والرقى في المنزل وزيادة الدخل، سواء في إدارة عامة أو منشأة خاصة، أو في الجيش أو البحرية، أو مع القانون، أو في الصفقات التجارية. قد ينجح شخص فريد من نوعه مثل فرانكلين دون اللجوء إلى المصلحة، لكن بالنسبة للجميع، فيما عدا أبرعهم وأكثرهم اجتهداً، فإنها تمثل عاملاً أساسياً، وبدونها تدهس طاحونة الحياة الإنسان دهباً. كما كانت المصلحة تعني حافزاً أيضاً؛ وقد استخدم جورج واشنطن ذلك المصطلح مراراً وتكراراً في خطابه وغيرها من كتاباته، مما عكس غياب النزعة العاطفية والمثالية التي ميزت القرن الثامن عشر. وقد أطلق عليها جورج واشنطن «الرباط الإسمنتي الأوحد»؛ فقد كتب يقول: «يمكن أن يتحدث الرجال عن الوطنية ... لكن من يعتمد

عليها بوصفها أساسًا كافيًا لخوض حرب طويلة ودموية سيكتشف في نهاية الأمر أنه وقع ضحية للخداع ... فالوطنية وحدها يمكنها أن تحت الرجال على العمل لفترة مؤقتة، أو تحمل المزيد من الأعباء، أو مواجهة الصعاب؛ لكنها لن تدوم دون أن تساعد المصلحة». ربما يتطوع الجنود الثوار بدافع حبهم لوطنهم، لكنهم يستمرون في القتال بدافع حب المال والترقيات. وهكذا حال الأمم، فقد تُوحَّد أمتان جهودهما لوجود أيديولوجية مشتركة، لكن إذا لم يكن بينهما مصلحة مشتركة، فإنهما سرعان ما تنفصلان فور تعارض مصالحهما. وقد كان ذلك هو المبدأ الذي وجه السياسة الجغرافية لجورج واشنطن. ويجب أن ندرك أنه كان يرى الثورة نفسها وعملية وضع الدستور التي تلتها كممارسات تقودها في المقام الأول المصلحة الشخصية. لقد كانت المصلحة دائمًا وأبدًا هي القوة الدافعة له، ولم يجد خجلًا في ذلك. وبالطبع نجد أنه سعى خلف مصلحته بقوة حتى أصبحت جزءًا من المصلحة القومية.

وقد انحصرت اهتماماته في الأرض والمصلحة، كيف يحصل عليهما؟ لقد ترك والده — عند وفاته في عام ١٧٤٣م — قطعة أرض شاسعة متناثرة عبر أربع مقاطعات بفيرجينيا بالإضافة إلى ميريلاند. وقد قُسمت تلك الأرض على أبنائه الخمسة الأحياء بموجب وصية معقدة. فحصل جورج واشنطن — الذي كان يبلغ الحادية عشرة من عمره حينذاك — على ثلاث قطع من الأرض في فريديريكسبرج، اثنان منها تشمل منازل؛ وقطعة أرض تمتد على مساحة خمسة آلاف أكر على نهر ديب رن، بالاشتراك مع أخيه صمويل؛ والمزرعة التي كان يقيم فيها والده على نهر راباهانوك. ولم يكن واشنطن يفتقر إلى الأراضي، لكن المشكلة كانت تكمن في كيفية استغلالها بفعالية بحيث تدر دخل سيد من النبلاء. وقد عُهد بالوصاية عليه إلي أخويه غير الشقيقين أوستين ولورانس. وقد كانا متزوجين ويمتلكان ضياعًا شاسعة، حيث ورث لورانس عن والده مزرعة ومنزلًا على نهر بوتوماك أعاد تسميتهما ليصبح اسمهما ماونت فيرنون تيمناً باسم فريق أول بحري خدم تحت قيادته في جزر الهند الغربية.

وكان لورانس أكثر شخص مؤثر في فترة شباب جورج واشنطن. وقد استغل نقص ضباط بريطانيا في أثناء حرب الخلافة النمساوية — بعد أن نعمت بسنوات طويلة من السلام في عهد سير روبرت والبول Sir Robert Walpole — للحصول على وظيفة منتظمة في الجيش. ومع أن مرض السل قد جعل فترة خدمته محدودة، فقد ظل يتلقى نصف راتبه حتى وفاته. وقد منح مرضه ذلك جورج واشنطن الفرصة الوحيدة للسفر إلى الخارج، حيث رافقه إلى جزر الهند الغربية للتعرض لأشعة الشمس. وتعرض جورج في أثناء تلك الرحلة للإصابة بمرض الجدري لكنها لم تستمر وقتاً طويلاً ولم تترك أي آثار دائمة. وقد شعر لورانس بالامتنان لمؤازرة جورج له، فجعله وريثاً له، كما منح الشاب أولى نفحات مبدأ «المصلحة» القوي. وقد نشأ هذا عن زواج لورانس في عام ١٧٤٣م من آن فيرفاكس Anne Fairfax، ابنة ويليام فيرفاكس William Fairfax الذي كان يمتلك «مزرعة بلفوار» وهي الضيعة التالية أسفل نهر بوتوماك. والأهم من ذلك أن فيرفاكس كان الوكيل الأمريكي للورد فيرفاكس السادس Lord Fairfax، الذي كان يملك مساحات شاسعة من الأراضي في «المستعمرات الوسطى» التي قد منحها إياه تشارلز الثاني Charles II. وقد أصبح لورد فيرفاكس، بموجب قرار مجلس شورى الملك في ١٧٤٥م، يملك ٨١٠٠ ميل مربع من فيرجينيا — وهي مساحة تزيد عن مساحة بلجيكا — تمتد من قرب مكان ميلاد جورج واشنطن إلى ينبع نهر بوتوماك وراباهانوك في سلسلة جبال الليجاني.

كان لذلك القرار القانوني أثراً رئيسياً على حياة جورج واشنطن، فكان من الواضح أن حما لورانس، ويليام فيرفاكس، يعتبر مصدر مصلحة لجورج لكونه وكيل تلك المساحات الشاسعة من أراضي اللورد فيرفاكس. فكان عليه أن يعين مساحي أراضي حتى يستطيع وضع خرائط للأراضي ويسجلها بالتفصيل ويجزئها. وكان جورج واشنطن بما له من مهارة في الرياضيات قد بدأ بالفعل يسير في ذلك الاتجاه. كما أنه فكر في المهنة الأخرى التي من الممكن أن يشغلها، ومنها الالتحاق بالبحرية الملكية كضابط صف، وعلى ما يبدو أنه حصل على وظيفة على بارجة حربية بفضل عائلة

فيرفاكس. ومن الغريب أن نابليون بونابرت، معاصر جورج واشنطن الأصغر سنًا، قد فكر هو الآخر في طفولته في كورسيكا في الالتحاق بالبحرية البريطانية. ولم يختلف سبب التخلي عن الفكرة عند كليهما، ألا وهو غياب المصلحة؛ فالتطوع كضابط صف يختلف تمامًا عن أن تصبح «ملازم أول بحري»، وهي الخطوة الأولى للترقي في سلك البحرية. فقد يظل المرء يعمل ضابط صف عشرين سنة أو أكثر إذا لم يكن لديه نفوذ في البحرية. وكان البديل المتاح أمامه هو الالتحاق بالأسطول التجاري، وقد فكر في هذا أيضًا. لكن ماري بول واشنطن، التي لم ترق لها فكرة عمل ابنها في البحر، أرسلت إلى أخيها غير الشقيق جوزيف بول Joseph Ball — الذي كان يقيم وقتها في إنجلترا — تطلب منه النصيحة، وجاء رده (في ١٩ مايو/أيار ١٧٤٦م) حاسمًا. فكتب إليها يقول إن عمل جورج واشنطن في الأسطول التجاري سيجعله معرضًا باستمرار لخطر إكراهه على الخدمة العسكرية، وهي الوسيلة القانونية التي كانت تلجأ إليها البحرية الملكية لتزويد سفنها بالجنود. «فستقيده البحرية وتشد وثاقه وتستخدمه كعبد زنجي، بل كالكلب. أما بالنسبة لشغله لمنصب رفيع في البحرية، فدائمًا ما تكون مطعمًا للكثيرين من أصحاب النفوذ، وهو ليس له نفوذ.»

وهكذا تقرر أن يبدأ جورج واشنطن في العمل بجدية في مسح الأراضي. وقد خضع لدورة تدريبية في مسح الأراضي من أغسطس/آب ١٧٤٥م إلى مارس/آذار ١٧٤٦م، ولا تزال آثار أعماله باقية، في المخططات التمهيدية والنهائية، فنجد خرائط تقريبية دقيقة وجميلة لممتلكات تعكس مثابرة ذلك الشاب المراهق وحماسه. لقد كان من الجلي أن جورج واشنطن يتمتع بموهبة فطرية في مشاهدة المناطق ووضع رسم ثنائي الأبعاد لها. وفي عام ١٧٤٧م، وصل اللورد فيرفاكس بنفسه وبدأ العمل بجدية في فحص أملاكه مترامية الأطراف، ثم واديه من ورائها. وقَبِل كبير مساحي الأراضي لدى فيرفاكس، جيمس جين James Genn، أن يعمل جورج واشنطن معه لمهارته، وأكمل تدريبه عن طريق تدريب عملي غير مدفوع الأجر تحت إشراف جيمس جين وجورج فيرفاكس، شقيق زوجة لورانس.

وبدءًا من تلك المرحلة التي شهدت أول رحلة لجورج واشنطن من منزله إلى الجبال وما وراءها، يتجسد لنا ذلك المراهق — الذي كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا عندما شرع في رحلته — شخصًا حقيقيًا. فبدأ يحتفظ بدفتر ليوميته بداية من الحادي عشر من مارس/آذار ١٧٤٨م، وهي عادة حافظ عليها طوال حياته (مع وجود فترات فاصلة). إن إظهار حرص جورج، الذي أخذ معه كميات هائلة من الملابس في رحلة إلى البرية، على توافر عوامل الرفاهية له معنى دلالي أكثر من كونه يكشف سرًا غامضًا عنه. (في الواقع، توضح «مذكرة» بخط يديه تعود لتلك المرحلة — تقريبًا ١٧٤٩م — تعليمات دقيقة تدل على الرفاهية فيما يخص الطريقة التي يرغب في أن يُصنع بها معطف السهرة الطويل.) كما كتب يقول:

«تناولنا عشاءنا، ثم تم إرشادنا إلى غرفة ما، ونظرًا لأنني لم أكن معتادًا مثل رفاقي على الإقامة في الغابات، انسحبت بهدوء وتوجهت إلى ما يطلقون عليه سريرًا، لكنني فوجئت بأنه عبارة عن مجموعة صغيرة من القش المتشابك دون ملاءات أو أي شيء آخر، إلا من غطاء يحمل بين طياته ضعف وزنه من الحشرات، مثل القمل والبراغيث وغيرها ... ومنذ ذلك الوقت، قطعت على نفسي عهدًا ألا أنام على هذا الحال، وفضلت النوم في الهواء الطلق بجانب النار ...»

وقد منحت تلك الرحلة لجورج واشنطن فرصته الأولى للاحتكاك بالهنود عن قرب «لقد كانت مفاجأة سارة أن نرى ثلاثين هنديًا تقريبًا عائدين من الحرب حاملين فروة رأس واحدة فقط. فقدمت لهم المجموعة الشراب الذي أنعشهم وولد لديهم رغبة في الرقص، فأدوا رقصة للحرب.» ووصف الحركات الراقصة والآلات الموسيقية بالتفصيل، لكن دون تعليق. من المهم أن نعرف أن جورج واشنطن عامل الهنود، في ذلك الوقت وكذلك في المستقبل، كحقيقة من حقائق الحياة الأمريكية — التي كان سلخ رءوس الأعداء واحدة

فقط من سماتها — أكثر من اعتبارهم فرصة لإبداء الأحكام الأخلاقية، سواء مؤيدة أو معارضة.

ومع ذلك، كان لدى جورج واشنطن حقيقة أساسية فيما يتعلق برؤيته للعالم، التي كانت قد بدأت تبرز بالفعل، ألا وهي أنه لا سبيل إلى السماح للهنود بعرقلة عملية توسع الاستيطان الأمريكي غربًا. ولم يعترض قط على تعاون الهنود مع المستوطنين ومشاركتهم لهم في التكنولوجيا المتقدمة ومستوى المعيشة الأفضل. لكن لم يطرأ على ذهنه قط أن للقبائل حقوقًا طبيعية في وجه اختراق البيض لأراضي الصيد الخاصة بهم، بل يبدو أنه كان يرى أن الحق «الطبيعي» والحتمي هو توغل البيض في المناطق الداخلية والاستحواذ عليها واستغلالها باستخدام جميع موارد وأساليب الزراعة الحديثة.

في حقيقة الأمر، جعلت تلك المغامرة الأولى إلى المناطق الداخلية من واشنطن غربيًا حتى النخاع. وقد ظهر اتجاهان بين المستعمرين منذ بداية الاستعمار الأوروبي لأمريكا على يد إسبانيا عام ١٤٩٢م. وقد قنع أصحاب أول هذين الاتجاهين — وكانوا يمثلون الأغلبية — بانتهاج الطريق السهل والأكثر أمنًا المتمثل في التشبث بالقطاع الساحلي، والاستفادة منه بزراعته، وتصدير المحاصيل، واستيراد جميع المنتجات الأخرى من أوروبا، بما في ذلك المنتجات الصناعية، ذلك علاوة على الحفاظ على أقرب نقاط اتصال بحرية ممكنة مع الدولة الأم. أما الاتجاه الآخر فكان أصحابه يقولون بالتقدم إلى المناطق الداخلية والاستحواذ على الدولة بأكملها، مع الحد من العلاقات مع أوروبا أو تجاهلها، أو قطعها إذا ما دعت الحاجة؛ وخلق مجتمع جديد تمامًا يتمتع بالاكفاء الذاتي والاستقلالية والتميز. وكانت المستعمرات اللاتينية بأمريكا الجنوبية والوسطى تميل إلى تبني الاتجاه الأول، مدفوعين إلى حد ما بطبيعة المناطق الداخلية التي لا تصلح للحياة بها، والسياسات التي تتبناها الحكومات الأم التي حاولت فرض أكبر سيطرة ممكنة على ما يفعله المستعمرون وأماكن استقرارهم. ولذلك، كان لتلك المدن علاقات رئيسية مع أوروبا، التي كثيرًا ما تكون هي علاقاتها الوحيدة، بدلًا من أن

يرسخوا علاقات فيما بينهم. وظلت المناطق الداخلية غير مأهولة إلى حد بعيد، وهكذا، كانت أمريكا اللاتينية ذات حضارة ساحلية. وقد بقيت تلك السمة بعد تدمير الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية، وحتى بعد بزوغ عصر التصنيع، وعزز تلك السمة تطور نظام تجاري عالمي. وحتى في عصرنا هذا، نجد أن الكثير من دول أمريكا اللاتينية تربطها بأمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا علاقات اقتصادية وغير ذلك أقوى من العلاقات التي تربطها بدول الجوار. ويوضح هذا النموذج وهذا التفضيل المبكر والمستمر في انتهاز الطريق السهل، سبب التطور البطيء والمحدود نسبياً لأمريكا اللاتينية. وقد كان النموذج ذاته يتطور في كندا — باعتبارها مستعمرة فرنسية — على ضفاف نهر سانت لورانس، ومع أن المستكشفين الفرنسيين توغلوا في وادي المسيسيبي، فقد فعلوا ذلك أساساً بصفقتهم مبعوثين من الدولة الفرنسية وليس كأفراد عازمين على الاستقرار وتأسيس دولة جديدة.

وعلى النقيض، خرج المستوطنون الإنجليز — الذين أصبحوا فيما بعد البريطانيين — في كل من نيو إنجلاند وفيرجينيا والمستعمرات الوسطى وكارولينا الشمالية والجنوبية، معتمدين على أنفسهم دون حماية الحكومة. فأقاموا المؤسسات النيابية الخاصة بهم على الطريقة الإنجليزية، وبدءوا في إدارة شئونهم الخاصة بأنفسهم من البداية. ولم تقدم إليهم حكومتهم أية مساعدة، لكنها أيضاً لم تقم بأية محاولات لفرض سيطرتها الكاملة، وبخاصة في نصف القرن الأول. وقد كان حكام المستعمرات المختلفة يحكمون بموافقة السكان المحليين مع أن تعيينهم جاء من قبل الحكومة بلندن. علاوة على ذلك، كان عدد المستعمرين الوافدين هائلاً، واستقروا بصورة نهائية وعملوا بجد في الزراعة. ففي نيو إنجلاند على وجه الخصوص، جرى استيطان مقاطعات بأكملها مع اندماج الهنود أو انتقالهم غرباً.

وفي فيرجينيا والمستعمرات الوسطى وأقصى الجنوب، ساد توجه نحو انتهاز الطريق السهل والقبول بالاستقرار على الساحل. فكان بإمكان المزارع أن يجني محصول التبغ الذي زرعه ويحمله من رصيف الميناء الخاص به، بجوار منزله أو مزرعته، مباشرة إلى السفينة التي تحمله إلى إنجلترا.

وكانت السفينة ذاتها تحضر سلعاً كمالية وأساسية. فكان صاحب المزرعة يحصل على قائمة بالمنتجات يختار منها طلبه، ثم يتسلمه في الرحلة التالية، وتحمل السفينة شحنة التبغ في المقابل. كان ذلك النظام بدائيًا، لكنه كان ملائمًا ويشبه نظام المقايضة، حيث تُجرى جميع المعاملات بالدفع الآجل، فقضى ذلك على الحاجة إلى المدن ذات الأسواق الضخمة، وحال بذلك دون التنمية الحضرية. ومرة أخرى، كان ذلك النظام يمثل الطريق السهل أو المريح للمزارع، لكنه بالطبع كان يصب في مصلحة التاجر الرأسمالي في لندن، الذي سرعان ما أصبح المزارع مدينًا له وظل كذلك طوال حياته، وكان وارثه يرث عنه المزرعة والنظام والديون.

وقد وجه جوزيف بول نصيحة حكيمة حول النظام إلى أخته غير الشقيقة، والددة جورج واشنطن، في خطاب أرسله إليها إذ قال لها، وهو من يكره البحر، إن المزارع يمكنه أن يعيش حياة أفضل من حياة ربان السفينة إذا عمل بجد. لكن عليها وعلى ابنها جورج، إذا ما أصبح مزارعًا، أن يتوخى الحذر؛ «فعليه ألا يرسل محصوله من التبغ إلى إنجلترا لبيع (هناك) مقابل حصوله على البضائع، لأنه إذا فعل ذلك سرعان ما سيقع فريسة في شباك الديون للتاجر ولن يخرج منها أبدًا». فنصحه بطرحه في السوق والتحلي بالصبر: فيجب عليه «ألا يتطلع إلى أن يصبح سيدًا نبيلًا قبل الأوان». وهناك أدلة تشير إلى أن واشنطن لم يتبع تلك النصيحة بحذافيرها، لكنها جعلته يفكر، وكان قد بدأ تدريجيًا يكتسب عادة التفكير العملية، التي كانت سر نجاحه في الحياة. وقد حفزته الرحلة إلى المناطق الداخلية هي الأخرى على التفكير. ومثلما كان التعامل حصرًا مع تاجر إنجليزي هو طريقة العيش السهلة — التي أثبتت بعد ذلك أنها حمقاء — كذلك كان التشبث بالأراضي الساحلية وعدم التوغل حتى إلى سفوح الجبال، ناهيك عن التوغل إلى ما وراء تلك الجبال إلى سهول المناطق الداخلية المترامية الأطراف. لم يعرف واشنطن — وهو في السادسة عشرة من عمره — مدى اتساع المناطق الأمريكية الداخلية فحسب، بل أيضًا كيف يقيّم جودة الأراضي بها ويحدد مدى إمكانية استغلالها. وكان جليًا بالفعل أن الزراعة الكثيفة

للتبغ في الأراضي الساحلية سرعان ما أجهدت التربة، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى تحسين الزراعة بطريقة علمية أو التوسع غرباً في الحصول على الأراضي — والأفضل كلاهما. لقد رأى واشنطن بأمر عينيه — شريطة أن يكون شخصاً يتغاضى عن أي حقوق افتراضية للهنود — أن هناك وفرة في الأراضي التي يمكن الاستحواذ عليها. لكن هذه الوفرة كانت تتوقف على أمرين: أولهما، القضاء على أي تهديد خارجي تفرضه الحكومات الأجنبية وسياساتها الاستيطانية القومية على امتلاك هذه الأراضي؛ وثانيهما، غياب أية محاولات من جانب الحكومة الأم للتدخل في الحرية المطلقة للمستوطنين الإنجليز في الاستغلال الكامل للآفاق غير المحدودة التي تقع في اتجاه الغرب؛ فقد كانت الحدود الشمالية والجنوبية لفيرجينيا قد تحددت بالفعل في عصر واشنطن. أما في اتجاه الغرب، فلم يكن هناك حدود إقليمية — إلا إذا سعت الحكومات الفرنسية والإسبانية لفرض حدود بالقوة، أو سعت الحكومة الإنجليزية لفرضها بقوة القانون. وخلاف ذلك، كانت الحدود الغربية لفيرجينيا تمتد عبر القارة، حتى تصل إلى حدودها الطبيعية على المحيط الهادئ. لقد كانت الآفاق التي فتحتها رحلة جورج واشنطن الأولى إلى المناطق الداخلية هي رؤية فيرجينيا غنية بالأراضي، وممتدة لمساحات مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادئ. لقد رأى رؤيا آنذاك وهو في السادسة عشرة من عمره، وقضى المرحلة التالية من حياته وهو يعمل ويحارب القوى التي هددت تلك الرؤيا.